مجانية التعليم
من طبيعة الديمقراطية الصحيحة

للأستاذ عماد الدين عبد الحميد
المحقق القضائى بالآثار

من الأصول الديمقراطية أن تفرض المساواة بين الناس أجمعين . وليست المساواة التى تعنيها الديمقراطية الصحيحة هى المساواة أمام القانون فقط بل المساواة كذلك فى فرص الحياة و إزالة القيود التى تحد جهود الأفراد فى الانتفاع بهذه الفرص .

والقيود المادية المفروضة عندنا فى مصر ، تبعا لسياسة التعليم القائمة هى حائل بين أغلب الناس و بين تحقيق رغبتهم فى التزود من الثقافة ، التى تقضى الديمقراطية بحق المساواة بين الناس فى الأخذ منها بأوفر نصيب .

فكان طبيعيا ألا تقضى الديمقراطية الصحيحة بفرض مثل هذه القيود ، لأن فى فرضها منعا طبيعيا قاهرا لأكثر الناس من أن يتمتعوا بحق البشرية الكريمة فى هذا الزمان .

وكان طبيعيا أن تكون المساواة التى تعنيها الديمقراطية الصحيحة إذن هى المساواة فى الفرص للوصول إلى الغاية الكبرى من التعليم . فمن حق كل راغب فى العلم قادر ذهنيا عليه أن يتعلم ، ومن حقه أن يعلو فى سلم التعليم درجات بقدر ما تسمح له مقدرته الذهنية ، فانه بالتعليم وحده يمكن أن يشعر بقيمة بشريته وقيمة جهده فى كفاح الإنسانية ، وقيمة نصيبه الشائع فيما ينال فى هذا الوطن من حقوق وما يؤدى فيه من واجبات . و بغير هذا يكون المواطن المصرى عاجزا عن أن يتفهم كل هذا أو شيئا منه ، محروما عمليا من الاشتراك الفعلى فى التمتع بعضوية كريمة بين سائر أعضاء هذا المجموع .

يلزم إذن أن تتجه سياسة الدولة الديمقراطية إلى العمل لتمكين كل راغب فى العلم قادر ذهنيا عليه من أن يتعلم . ومن اللازم إذا أن يباح بالمجان للناس أجمعين قسط كاف من التعليم حتى يكونوا قادرين على الاشتراك اشتراكا عمليا منتجا — لهم وللمجموع — فى سلوك طريق الحضارة الحقة ، فى موكب البشرية الكريمة .

ومن اللازم أيضا — بعد هذا — أن يوجه الناس فى التعليم وجهة تتفق وعاملين أساسيين فى تكوين ثقافة الشعوب . العامل الأول الاستعداد الذاتى والرغبة الشخصية

الصحيحة لدى الإنسان ذاته . والعامل الثانى طبيعة الموطن وحاجات الحياة فيه ، لحاضره ومستقبله .

ويلزم ألا تقوم عقبات مادية أيضا فى سبيل توجيه سياسة التعليم هذا الاتجاه القويم ، فالأموال التى تتحملها الدولة اليوم — مهما بلغت من كثرة — لا تقاس بشىء إلى جانب الفائدة الكبرى التى يجنيها الوطن فى حاضره ومستقبله ، من إعداد شعبه هذا الإعداد الثقافى السليم .

إن الدولة لا تعجز — ويلزم ألا تكون عاجزة — عن أن توجد مورد المال الكافى لتحقيق هذا الحق الديمقراطى المشروع . لدى الدولة فى ميزانيتها أوجه للصرف كثيرة يمكن أن يلغى ما يعتمد لبعضها ولا تخسر الدولة شيئا ، ويمكن أن يخفض ما يعتمد للبعض الآخر ولا تخسر الدولة شيئا كذلك .

ولدى الدولة — فوق هذا — أبواب للإيراد مازالت موصدة لم تفتح بعد ، ولديها أبواب أخرى يمكن أن تعد كأنها ما زالت موصدة أيضا ، إذا قيس ما يجنى من هذه الأبواب نسبيا بما يجنى من مثلها فى غير مصر من سائر الدول الديمقراطية .

مصر فى حاجة إلى إصلاح وطنى كبير فى شتى مناحى الحياة . ومن حق القائمين بالأمر ومن وظيفتهم أن يصعدوا بها درجات إلى العلا والرقى . ومن حقهم ومن وظيفتهم أن يسلكوا للوصول إلى هذه الغاية كل طريق .

والذين هم فى حاجة اليوم إلى عون المجموع ليحصلوا على قسطهم الحق من التعليم ، لعجزهم عن دفع نفقاته ، هم أولئكم الذين يفيد الوطن من مساعدهم وعرفهم الفائدة الكبرى فليتحمل القادرون ما تتطلبه العدالة الاجتماعية لإنصاف هؤلاء الذين هم فى حاجة إلى عون المجموع ، جزاء طبيعيا عادلا لما يتحمله هؤلاء من أثقال وأعباء الحياة .

لقد طرب الناس كثيرا حين قرأوا : أن وزارة المعارف أخذت فى إعداد إحصاء بالمبالغ التى تحصل من مصروفات التلاميذ بالتعليم الابتدائى ، حتى إذا ما وجدت أن هذه المبالغ مما يمكن أن تتحمله مالية الوزارة تقدمت بطلب للحكومة وللبرلمان بالموافقة على جعل التعليم الابتدائى بالمجان .

طرب الناس كثيرا لهذا ، وتناقلوه ، وتبادلوا الأحاديث فيه كنبأ سار يهنىء الناس بعضهم بعضا على تحقيقه . لأنهم يشعرون فى أنفسهم بحقيقة الضيق المادى الذى يعانون ؛

ولأنهم يتوقون إلى ان يتعلموا ليعلموا فيعملوا عملا كريما يرفع من قدرهم فى الحياة ، ولأنهم يتحرقون شوقا إلى أن تكون نقابة أبلادهم أوفر نصيبا وأطيب حظا من ثقافتهم ، ليطمئنوا فى الحاضر على حياة كريمة فى مستقبل سعيد لهؤلاء الابناء ، ولأنهم يرون فى تحقيق هذا الرجاء اعترافا بقيمة جهودهم لخير المجموع ، وشيئا ذا قيمة من الإنصاف .

أرجو أن تكون مالية الوزارة مستطيعة أن تتحمل ما يقتضيه تنفيذ هذا المشروع من نفقات فان لم تكن مستطيعة فرجائى أن تكون ميزانية الدولة — بشىء من التعديل — قادرة على تحقيق هذا الأمل . و إذا كانت هذه كذلك عاجزة — بحالها المعدلة — عن أن تحققه فالرجاء الباقى عندى وعند الناس أجمعين ، هو أن تحقق هذه الوزارة هذه الأمنية لهذا الشعب بطريق تشريع ما يلزم من النظم المالية المدعمة لميزانية الدولة ، تلك النظم المعروفة المألوفة فى شتى الأنحاء ، والتى تحمل الناس من التكاليف بقدر ما يجنون فعلا من النفع .

ولتجعل لوزارة الناس — بهذه الخطوة المباركة فى تدعيم الديمقراطية الصحيحة — أكثر إيمانا بأن الديمقراطية المصرية هى وحدها القادرة على تحقيق آمال الشعب فى تيسير التعليم والتوسع فى نشره ؟

عماد الدين عبد الحميد

من كلام الإمام على

— إن المسكين رسول الله فمن منعه فقد منع الله ، ومن أعطاه فقد أعطى الله .

— ما المبتلى الذى قد اشتد به البلاء أحوج إلى الدعاء من المعافى الذى لا يأمن البلاء.

— مودة الآباء قرابة بين الأبناء ، والقرابة إلى المودة أحوج من المودة إلى القرابة .